بسم الله الرحمان الرحيم

6

استغراب الشباب العربي

في إنتاجه وآدائه للموسيقى العربية ؟

أ.د. صالح المهدي

إنّ توجّه الشّباب العربي إلى الألحان الغربيّة و المستغربة أمر حتميّ ونتيجة لما زرع فيهم من أغان وتمارين وقطع غريبة عن هويتهم وقديما قالت النسوة العربيات "ابنك على ما تربيه وزوجك على ما تعوديه". فابتداء من منتصف العشرينات وبداية الثلاثينات من القرن العشرين منه ركّز المسؤولون عن الموسيقى في وطننا العربيّ على تقليد ما يقوم به الفنّانون والأساتذة الغربيون بدون أي تصرف ولا تغيير وذلك في جميع درجات التعليم الموسيقي ابتداء من أناشيد الأطفال (في الروضة والابتدائي) ثم في الثانوي الذين لحنت لهم في مقامي الكبير (ماجور) والصغير (مينور) وقد قدمت لهم مرافقة بآلة البيانو الغربية أو إحدى فصيلاتها (كما تزرع تحصد) زد على هذا البرامج التي تقدمها فرق الأطفال بالإذاعة والتلفزة وجميعها تستعمل شيئا من توافق الأصوات (هارموني) التي ليس لها أية صلة بأصالتنا الفنية العربية بحيث يفرض على الطفل وحتى على الشاب برنامج مخالف لما تغذى به من لبان أمه. وإذا دخلنا للمعاهد الموسيقية فالكارثة أكبر ففي تعليم الترقيم والنظريات يركزون على القراءة الإيقاعية أولا الشيء الذي لا يتحمله الطفل ولا المراهق ويشعران بأنهما لم يقع توجيههما إلى المسار الصحيح لفائدة الجنين الذي لم يغادر موطنه الأول إذ يثبت العلم الحديث أن الجنين يستمع إلى كل ما يجري في العالم الخارجي وتقوى معه هذه الميزة عندما يخرج من بطن أمه لمجابهة الحياة فيبدأ بتقليد الأصوات والحركات وقديما كانت الأمهات يتغنين لأطفالهن لمساعدتهم على تقبل النوم والاستمتاع به، وفي تونس كن يتغنين على مقام العشاق (محير سيكاه) "تني نني جاك النوم يا خديد بو قرعون" وفي العراق يستعملون مقام المدمي من فصيلة مقام الحجاز مع كثرة التوقف على الدرجة الثانية من سلمه.

وفي السبعينات شاركت في مؤتمر بمدينة دلفي الأثرية اليونانية وقدم لنا أستاذ باحث من انجلترا دراسة عن هذا المقام وقدم كشاهد عليه غناء "التبنينة العراقية" على هذا

المقام غنتها إحدى تلميذاته مصحوبة بآلة البيانو التي لا تؤدي سوى الدرجات وأنصافها بينما مقام الحجاز يعتمد في الدرجة الثانية من سلمه على خفض درجة مي 40 % من الدرجة الصوتية وبينت له ذلك غناء فاقتنع وأصبحنا أصدقاء نتقابل ونتناول خصائص المقامات الموسيقية العربية.

الشيء المخيف هو أن يأتي متعاون من الخارج ويقدم لنا موسيقانا بأخطائه والمخيف أيضا أن ببرامجنا الحالية سنخرج شبانا يرتكبون مثل الخطأ الذي برز في غناء البنت المذكورة وتمنينا لو لهذه البنت الشجاعة الكافية للرجوع إلى الجادة مثلما وعد أستاذها.

أما تعليم الآلات فالكمنجة وأنواعها يعتمدون فيها على الطرق والتجارب الغربية التي تبعد المتعلم عن أداء الأجزاء الصغيرة من الدرجة الصوتية وهذا ما جرى في الجمهورية التركية وبعض البلاد العربية إذ ينتجون شبابا دارسا هذه الآلة بالطريقة الغربية ولا يمكنهم البروز بها في القطع التي تمثل أصالته الفنية وهذا يسبب خسارة كبرى في خروج الممتازين من التلاميذ في هذه الآلة من بلدانهم للاستقرار في إحدى البلدان الأوروبية التي يجدون فيها من ينتدبهم للعمل وفي هذا المجال حكى لي مسؤول تركي الأقصوصة الآتية، قيلت عندما منع رئيسهم كمال مصطفى أتاتورك تأسيس المعاهد الشرقية التي ترتبط بهويتهم وأسّس مقابل ذلك المعهد الوطني على أسس غربية بحتة : ذهب حمار إلى الذئب وقال له :" لماذا لا تنتخبوني ملكا عليكم خاصة وأن جسمي لا يبعد عن جسم الأسد". فأجابه الذئب بأنّ أذنيه طويلتان وهذا مخالف لما عند الأسد فطلب منه أن يأكل منهما جانب ليصبح أسدا وبعد ذلك قال له الذئب هنالك ظاهرة لا بدّ من إزالتها وهي الحوافر التي بأرجله فإذا زالت قرب من الغاية فطلب منه إزالتها ليصبح أسدا ولكن بعد ذلك أتى الذئب للحمار بمرآة رأى فيها نفسه فتبين له أنه أضاع هويته ولم يلحق على الهوية المنشودة ورأى الذئب أن الحمار أضاع قدرته على الدفاع عن نفسه وأصبح أكلة صائغة فالتهمه.

وقام بعض المغنين والمغنيات بإتباع مناهج الغناء الغربي فابتعدوا عن الطرب الذي هو عماد موسيقى الحضارة الإسلامية وبذلك لا يمكن لهؤلاء بأن ينعتوا بكلمة المطرب أو المطربة وفقدان هذا العنصر من أغانينا يجعل المؤدين يستمتعون بالتصفيق

والإكبار ولكن تبعد عنه الظاهرة التي تجعل من الفن حوارا روحيا بين المؤدي وجمهور المستمعين وينتج عن ذلك ضعف مقدرة الارتجال الحقيقي الذي هو كما قلنا عماد الموسيقى العربية.

وأصبح كبار الفنانين يلحّنون الموالات والقصائد لأبرز المطربين والمطربات.

فقد قام الملحّن المرحوم محمد القصبجي بتلحين موال من نضم المرحوم مصطفى بك نجيب موال طالعه : "الليل أهو طال" في مقام الراست للمطربة أم كلثوم كما لحّن لها المرحوم الأستاذ زكرياء أحمد موالا من نضم الأستاذ محمود بيرم التونسي طالعه : "برضاك يا خالقي" في مقام الإيجاز كما لحّن كبار المطربين موالاتهم وقد تسربت العدوى إلى أبرز المجوّدين فلحنوا تجويدهم للقرآن وسجّلوه وهذا خطأ كبير يحرم تناوله إذ لا بدّ أن ينصب تفكير المجوّد على قواعد التجويد والتغني لا بدّ أن يأتي عفوا وارتجالا.

أما الأغاني الحديثة فقد ضاعت منها الكلمات والتلحين وحتى الأصوات التي تغطى عيوبها ورداءتها بإبراز بعض المناظر الجميلة أو بعض الحركات المثيرة للجنس وقد وصل بنا الاستهتار إلى الغناء بالفراش وفي حالات مخجلة، هذه ظاهرة تمسّ من مكانة الفنّ وأهله وتحدّ من حرصنا على النهوض به الذي بدأناه من الثلاثينات من القرن الماضي وذلك بتقويم السلوك الأخلاقي وإزالة الأميّة التي كانت متفشية في الوسط الفني وكذلك بالرفع من المستوى الفنّي نظريا وتطبيقيّا ولوسائل الإعلام دور كبير في الرفع من هذا المستوى أو في النزول به، وقد كلفنا الأستاذين قدّور الصرارفي بإلقاء دروس للفنانين في ولايات الشمال وقام الأستاذ علي الحشيشة بذلك في ولايات الجنوب، فلا بدّ أن نوقف الإذاعات والتلفزات التي أصبحت تبثّ الأغنية العربية التافهة أحيانا مقابل ثلاث أغان غربية في الحصة الواحدة، بحيث يفرضون الاستغراب على سمّيعيهم ومشاهديهم، الإصلاح سهل إذا توفرت فيه الإرادة السياسيّة وفي التعليم الابتدائي ننتج أغان وأناشيد تبثّ التقدير والمحبّة المتبادلين بين البشر ونعرّف بجمال بلادنا وبالمثل العليا حتى يتحقق مبدأ يصيح به المواطن مؤمنا يحبّ لأخيه ما يحبّه لنفسه بألحان ترتكز على جميع المقامات والإيقاعات العربية بأسلوب مبسّط جذاب وتبثّ يوميّا بالإذاعة والتلفزة في حصص الأطفال والشباب مع بيان أسماء مقاماتها وإيقاعاتها ولا بأس بإملاء الكلمات،

وتنظم دورات تدريبية للمعلمين لأداء هذه الأغاني أداء صحيحا مع عزفها على آلة العود التي تعوّض آلة البيانو الغربية التي لا تؤدي كل مقاماتنا.

وفي التعليم الثانوي نجعل هذه الأغاني مادة تطبيقية لقراءة ترقيمها (سولفاجها) قراءة إيقاعية وصوتية بعد دراستها نظريا وتطبيقيا.

ونحث الإذاعات والتلفزات على جعل حصص يومية تبثّ فيها الإرتجالات التقليدية (تقاسيم، موالات، عروبيات وقصائد) لأمهر الفنانين العرب بمختلف اللهجات العربية.

وننظم سنويّا مسابقات بين الأساتذة من جهة وبين التلاميذ النجباء لإنتاج أغان وأناشيد على غرار التي في البرنامج المذكور. وتبعث في كل مدرسة فرقة موسيقيّة ومجموعة صوتيّة مختارة من خيرة التلاميذ تؤدّي التراث والإنتاج الحديث مع التمكن من مقاماتها وإيقاعاتها وأشكالها ونجري بين هذه الفرق مسابقات سنوية على مستوى المعتمديات ثم الولايات والفرق الناجحة تساهم في المهرجانات الوطنيّة على غرار ما وقع بتونس من سنة 1958 عند إحداث ديبلوم الموسيقى العربية.

تقوم الصحافة بتخليد أسماء العناصر الممتازة في إنتاج وعزف وأداء هذه القطع وبنقد هذا العمل نقدا بناءا يهمّ تحسّن العمل وتشجيع القائمين عليه.

تلك هي المشاكل التي تسبّبت في خروج أغانينا العربيّة من مسارها لترتمي بين أحضان ثقافة أجنبية لا صلة لها بها وختمنا بسلسلة من النصائح تضمن لنا إن شاء الله الحفاظ على هويّتنا وعلى مساهمة أجيالنا في إثراء هذه الثقافة.

أمّا المحور الثاني المتعلق بتدريب الأطفال على استخدام تعدّد الأصوات، فإني أرى فيه أعظم خطر على حياة موسيقانا العربية فباتفاق الجميع أن الشعب العربي والشرقي لا يقبلان هذا التعدد زد على ذلك فقد أثبتت التجارب أن الذين ينضمون لهذا العمل الذي درسناه وطبّقناه بإحداث الفرق السمفونية والإنتاج لها ولكنه لا يقبل تطبيقه على أغانينا التراثية أو الحديثة الخالدة. فقد لاحظت في هؤلاء المتحمّسين لهذا العمل الذي أصله غربيّ وأصبح كبار الفنانين والمؤسّسات الفنية يتخلون عليه لفائدة تجارب على مستويات مختلفة بما في ذلك ما تقوم كل سنة منظمة اليونسكو من مسابقات في هذا المجال الحديث فقد أثبت تاريخ الفن أن إنتاج أشهر الفنانين العرب الذي بقي خالدا عبر الأجيال لم يدخل فيه تعدد الأصوات المذكورة كما أثبت التاريخ فقد سعيت عندما ترأست المجمع العربي

للموسيقى في إحداث لقب موسيقار العربي وأردت بداية إسناده لأول مرة إلى الأستاذ محمد عبد الوهاب فوافق الجميع ما عدى الوفد المصري الذي عارض في ذلك لأن أحد أفراد الوفد أراد إسناد هذا اللقب إلى المرحوم جمال عبد الرحيم وهو لا يعرف الموسيقى العربية والشاهد الثاني على أن من ينغمسون في الموسيقى الغربية ولو جزئيا تصبح لهم كراهية للفن العربي ومبدعيه من ذلك أني تشرّفت بترشيح الصديق الكبير الأستاذ رياض السنباطي لنيل الجائزة العالمية من منظمة اليونسكو عندما كنت رئيسا مساعدا للمجلس الدولي للموسيقى وعندما وافقني المجلس على ذلك الترشيح أبرقت لكل من صديقي أحمد شفيق أبو عوف ومدحت عاصم فعمم الأستاذ أحمد الخبر على الصحافة بينما أرسل الأستاذ علصم برقية للمجلس الدولي للموسيقى التابع لليونسكو يحتج فيها على هذا الترشيح لكن الأمر قد فاته ولا يمكن لأي كان التراجع عن هذا التكريم فأرسل إليّ المجلس نسخة عن برقياته وعندما لاحظ أن لا مناص من إسناد الجائزة لأنه اتخذ بالإجماع ولأني اطلعت على برقيته المؤسفة وفي إحدى زيارات القاهرة تشرّفت بزيارة السيد وزير الثقافة ولكنه وجّه إليّ لوْما لطيفا حيث قال لي كنّا نود أن تراجعنا قبل الترشيح فأجبته بأني لست موظفا مصريا وبأني قمت بما قمت عن قناعة تامّة ولو وجّهنا السؤال إلى جميع الفنانين في أيّ قطر عربي لأيّدوا هذا الترشيح وعند تسليم الجائزة – بمدينة براتيسلابا– التي تتمثل في كأس كبير من الكريستال يقارب طوله المتر لم يحظ الموجّه له صديقنا الأستاذ رياض السنباطي لما أصابه من مرض وتسلم الجائزة الأستاذ مدحت ناصر رئيس اللجنة الوطنية للموسيقى ومن المؤسف جدا أنه لم تصل تلك الجائزة إلى المرحوم الأستاذ رياض أو إلى عائلته بعد وفاته وأقترح أن نبحث في هذا الموضوع وآمل أن نجد الجائزة وأن نعيدها إلى مستحقيها. فبعدنا عن الأصالة العربية في الموسيقى يكوّن فينا مركب نقص ينتج عليه تصرّف مشين مثل ما لاحظناه والله الموّفق.